*** الصدر.**

يطلق في اللغة على الجارحة :

قال تعالى :﴿ **قال رب اشرح لي صدري**﴾ طه٢٥ . وجمعه صدور .

قال تعالى : ﴿ **وحصل ما في الصدور** ﴾ العاديات١٠ .

ثم استعير لمقدم الشيء ، كصدر المجلس والكتاب والكلام.

قال بعض الحكماء: وحيثما ذكر الله تعالى القلب فإشارة إلى العقل ، والعلم ، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك ، وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها[٣٢].

*** الصدر والقلب :**

والصدر بالنسبة للقلب بمنزله بياض العين من العين ، وبمنزلة صحن الدار في الدار ، وبمنزله الصدفة من الؤلؤ.

وهو موضع الشفاء المعنوي ، ونور الإسلام وحفظ العلم المسموع ، وهو موضع دخول الغل والشهوات ، والمنى والحاجات ، وأنه يضيق أحيانا وينشرح أحيانا...

وإنما سمى الصدر صدرا: لأنه صدر القلب ، وأول مقامه ، كصدر النهار الذي هو أوله .

وأما القلب فهو المقام الثاني فيه ، وهو داخل الصدر ، وهو كسواد العين الذي هو داخل العين وهو البياض.

**** من صفات الصدر:**

أنه يبتلى بدخول الشيطان ووسوسته ؛ ليعلم الإنسان قليلا من خالص أمره، ويريه تمام فقره ، وتصديق ذلك قوله ﷻ :﴿ **وليبتلي الله ما في صدوركم** ﴾ آل عمران ١٥٤.يعني ــ والله أعلم ــ: بوسواس الشيطان والنفس.

---

(٣٢) الراغب: ٢٧٦. والكليات: ص ٧٠٤.

* **ومن صفاته أنه ينشرح ويضيق :**

والانشراح والضيق إنما يضاف إلى الصدر ولا يضاف إلى القلب :

قال ﷻ : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ الشرح١ .

وقال ﷻ :﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾الأنعام ١٢٥.

وقال ﷻ : ﴿ **فلا يكن في صدرك حرج منه** ﴾ الأعراف ٢ .

وقال ﷻ:﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك** ﴾ هود١٢.

وقال ﷻ: ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** ﴾ الحجر ٩٧ .

وقال ﷻ: ﴿ **ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ..** ﴾ الشعراء١٣ .

فأضاف الله تعالى في الآيات السابقة الشرح والضيق إلى الصدر مع ملاحظة أن ضيق صدر النبي ﷺ ، وصدر الكليم لا يكون من ناحية الوسواس ــ فالأنبياء معصومون كما هو معلوم لدى كل مسلم ــ ولكن صدورهم الشريفة قد تضيق من مكر واستهزاء المشركين وتكذيبهم.

ولا غاية لضيق الصدر إذا هو ضاق ، وصدر كل واحد يضيق على قدر جهله وغضبه ، وكذلك لا غاية لسعته إذا انشرح بهدى الله تعالى ، فإذا ضاق عن الحق اتسع للباطل ، وإذا ضاق عن الباطل اتسع للحق.

ألا ترى إلى ما ذكر الله ﷻ ممتنا على نبيه ﷺ :

﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ الشرح١ .

فمن الله بشرح صدره بأنوار حق الإسلام حتى ضاق صدره عن وسع الباطل، وصدر المؤمن يضيق أحيانا من كثرة الوسواس ، والغم والشغل وتتابع الحوائج وبلوغ الحوادث ، وإصابة المصائب.

ويضيق أيضا: إذا سمع باطلا فلا يحمل قلبه ذلك ، لأن الله تعالى وسع صدره بنور الإسلام فهو على نور من ربه.

وأما صدر الكافر والمنافق فإنه امتلأ من ظلمات الكفر والشرك والشك ، واتسع لها فلم يبق فيه مكان لنور الإسلام وضاق عن وسع نور الحق فيه.

قال الله ﷻ :﴿ **ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾ النحل ١٠٦ .

وقال ﷻ: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾الأنعام ١٢٥.

فبين الله تعالى أن الصدر أذا امتلأ من ظلمات الكفر ضاق عن وسع أضدادها من الأنوار.

* **ومن صفات الصدر أيضا أنه موضع الغل والجناية :**

لأن النفس ذات غل وجناية ولها ولاية في الصدر بالدخول ، وهو من جهة الإبتلاء.

قال ﷻ في وصف أهل الجنة:

﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل ..**﴾ الأعراف ٤٣ .

حتى يدخلوا الجنة بلا غل .

وقلب المؤمن الحق محفوظ من الغل ؛ لأنه موضع الإيمان إلا أن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه ، ويسألوه أن لا يجعل في قلوبهم غلا قال ﷻ:

﴿ **ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ...** ﴾ الحشر ١٠ .

وأحب ــ سبحانه ــ أن يدعوه ويخافوه ؛ ليطهر قلوبهم ولم يضمن لهم حفظ صدورهم من الوسواس ليعرفوا منة الله عليهم ، ويحفظ قلوبهم ليستغيثوا إليه من وسواس الصدور ليزدادوا عزا ، وشرفا بالله إذا طهر قلوبهم ومحضها ، ويزدادوا ذلا في أنفسهم.

قال ﷻ:﴿**ويشف صدور قوم مؤمنين.ويذهب غيظ قلوبهم** ﴾التوبة١٤-١٥.

فبين الله تعالى أن الشفاء يكون للصدور التي هي موضع الغل .

وقال ﷻ: ﴿ قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ يونس٥٧.

وقال ﷻ : ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه .. ﴾ غافر٥٦ .

• **ومن صفاته** : أنه موضع التعلم والتحفظ والاجتهاد ، فكل علم لا يوصل إليه إلا بالتعلم والتحفظ والإجتهاد والتكلف من جهه السمع والخبر قرآنا كان أو سنة أو غيرهما فإن موضعه الصدر، ويجوز عليه حكم النسيان :

قال ﷻ :﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ العنكبوت٤٩.

• **ومن الصفات التي لا تكون في الصدر بل تضاف إلى القلب فحسب : العمى والبصر** ، قال تعالى:

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ الحج٤٦.

وكل ما تقدم محمول على جهة الظاهر من الأدلة ، أما من جهة مجاز اللغة وتعارف الناس فإنه ربما يعبر بلفظة الصدر عن القلب.

وقد يذكر الصدر صراحة ويعني به القلب.

فقال ﷻ :﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله .﴾ آل عمران٢٩

وقال ﷻ : ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ..﴾ آل عمران ١١٨ .

وقال ﷻ : ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ النمل ٧٤.

فقد عني بذكر الصدر في كل هذه الآيات القلب.

والمراد هنا قلوب الكفار ؛ لأن صدورهم وقلوبهم صادة موصدة لخلوها عن نور الهدى(٣٣).

(٣٣) أنظر تفصيل هذا في بيان الفرق بين القلب و الصدر ص٣٣، ٤٧، ٦٥.

ولعلنا من خلال هذه السياحة ــ الطويلة نسبيا ــ ندرك أن الصدر شيء والقلب شيء آخر ، وذلك باعتبار ظاهر الألفاظ والأدلة ، أما من حيث المجاز فإن الصدر هو القلب كما دللنا سالفا.

• الفؤاد.

الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أى: التوقد.

يقال: فأدت اللحم: شويته.

قال ﷻ : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ النجم١١ .

والفؤاد مفرد جمعه أفئدة.

قال ﷻ : ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ..** ﴾ إبراهيم ٣٧ .(٣٤)

ويقول **صاحب القاموس:**

والقلب: الفؤاد ، أو أخص منه ، والعقل ، ومحض كل شيء(٣٥)

ويعلق **ابن منظور** على حديث الصحيحين : " **أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة** " بقوله: وصف القلوب بالرقة ، والأفئدة باللين ، وكأن القلوب أخص من الأفئدة في الاستعمال ، وكذلك قالوا: أصبت حبة القلب، وسويداء قلبه.

وقيل: القلوب والأفئدة قريبان من السواء ، وكرر ذكرهما لاختلاف اللفظين تأكيدا.

قال **الأزهري:** ورأيت بعض العرب يسمي لحمة القلب كلها ــ شحمها وحجابها ــ قلبا وفؤادا ، قال: ولم أرهم يفرقون بينهما.

وقال **ابن سيده** : القلب الفؤاد(٣٦).

---

(٣٤) انظر الراغب ص٣٨٦ ، والتفسير الموضوعي ٢١٠/٧ .

(٣٥) القاموس: فأد .

(٣٦) اللسان: فأد: ٣٣٣٤/٥.

والفخر كذلك يقف موقف المبين للرأي في القلب والفؤاد بإيجاز شديد ولا يزيد، فيقول : " ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد ، ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان[٣٧].

وبعض العلماء يجعل القلب هو الذي يحتوي الفؤاد ، فإن **الإمام القرطبي** يرى أن الفؤاد يحتوي القلب فيقول :

الفؤاد محل القلب ، والصدر والقلب محل العقل في قول الأكثرين ، والفؤاد محل القلب والصدر محل الفؤاد[٣٨].

ويرى الحكيم الترمذي فرقا لطيفا له نصيب من وصف قائله ، فيقول: "اسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب ، ومعناهما قريب كقرب معنى الاسمين: الرحمن الرحيم.

ومثل الفؤاد في القلب كمثل الحدقة في سواد العين ، وكمثل المسجد الحرام في داخل مكة ، وكمثل المخدع والخزانة في البيت ، وكمثل اللب في داخل اللوز[٣٩].

فالفؤاد موضع المعرفة ، وموضع الخواطر ، وموضع الرؤية ، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولا ، ثم القلب .

والفؤاد في وسط القلب كما إن القلب في وسط الصدر مثل اللؤلؤ في الصدف.

*** ومن الأمور التي فرق بها العلماء بين القلب والفؤاد :**

أن القلب يحتاج إلى الربط والتأييد ، أما الفؤاد فيحتاج إلى المعونة والمدد بالهداية.

---

(٣٧) الفخر: ١٦٧/٢٤

(٣٨) القرطبي: ١٨٩/١.

(٣٩) الحكيم الترمذي: ص٦٩.

قال ﷻ في أصحاب الكهف: ﴿ **وربطنا على قلوبهم ..** ﴾ الكهف١٤ .

وقال في حق أم موسى: ﴿ **.. لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ القصص١٠.

أي بنور التوحيد ، وذلك أن القلب يعلم ، والعالم يحتاج إلى ربط التأييد حتى يطمئن بذكر الله تعالى.

أما الفؤاد: فإنه يرى ويعاين فيقع له الفراغة ، ولا يحتاج إلى الربط بل يحتاج إلى معونة المدد بالهداية ، قال تعالى:

﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به ..** ﴾ القصص١٠ .

فوصف الفؤاد بالفراغة ، وفضله على القلب إذ كان القلب يحتاج إلى الربط ، والفؤاد يرى ويعاين ، والقلب يعلم وليس الخبر كالمعاينة[٤٠].

*** الروح وعلاقتها بالقلب :**

الروح : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت .

والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى.

والمعنى الثاني: هو اللطيفة العامة المدركة من الإنسان وهو ما أراده الله بقوله ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ الإسراء٨٥ .

وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته[٤١].

من هذه الحيثية نستطيع القول بأن القلب متصل بالروح اتصال السبب بالمسبب ، فانعدام الروح يساوي سلب حياة القلب.

---

(٤٠) الحكيم الترمذي : ص ٦٩.

(٤١) إحياء علوم الدين : ٣/ص ٤.

• **النفس وصلتها بالروح والقلب :**

النفس: ذات الشيء وحقيقته ، ثم قيل: للروح لأن نفس الحي به ، وللقلب: لأنه محل الروح أو متعلقه ، وللدم لأن قوامها به.

وللماء: لفرط حاجتها إليه ، وللرأي : في قولهم فلان يؤامر نفسه ؛ لأنه ينبعث عنها[٤٢].

قال **الشهاب:**

" وذهب كثير إلى أن النفس حقيقة في الروح وإطلاق النفس على الروح من قبيل ذكر المسبب وإرادة السبب أو من إطلاق اللازم على ملزومه ؛ لأن النفس: ذات الشيء وذات الحيوان بالقلب تتقوم لأن القلب: مبدأ الحياة ومحل الروح الحيواني ؛ ولذلك خلق وسط الصدر ؛ لأنه أحرز المواضع في البدن إذ العظام سور حصين له والعضلات حرس له[٤٣].

• **وجمهور العلماء** على أن النفس : الروح ، يقال: خرجت نفسه أى روحه[٤٤].

• **والنفس تطلق على القلب مجازا.**

قال تعالى في قصة عيسى عليه السلام : ﴿ **تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك** ﴾ المائدة ١١٦ ، يعني تعلم ما في قلبي .

وقال ﷻ:﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ البقرة ٢٣٥، أي قلوبكم .

---

(٤٢) البيضاوي على هامش الشهاب: ١/٤٩١.
(٤٣) نفس المصدر السابق.
(٤٤) الروح ــ د٠المنير: ص ٣٦ط المعارف.

وبعد .

فاسم القلب اسم جامع لكل مقامات الباطن ، وفي الباطن مواضع منها ماهو من خارج القلب ، ومنها ما هو من داخله.

فأشبه اسم القلب اسم العين ، إذا العين اسم يجمع ما بين الشفرين من البياض وما يحتويه ، والسواد وما يشتمل عليه كالحدقة ، والنور الذي في الحدقة ، وكل واحد من هذه الأشياء له حكم على حدة ، ومعنى غير معنى صاحبه إلا أن بعضها معاون لبعض ، ومنافع بعضها متصلة ببعض ، وكل ما هو خارج فهو أساس الذي يليه من الداخل.

قال بعض السادات:

القلب: مقر الإيمان .

الصدر: محل الإسلام .

والفؤاد: مشرق المشاهدات.

واللب: مقام التوحيد الحقيقي [٤٥].

واختم بالمسك ، والمسك هو مقولة الإمام الغزالي ـ معلقا على هذه الأسامى " القلب ، اللب ، الفؤاد ، الروح ، النفس ، العقل " ـ لأضع نفسي في حيز مقدرتي الضعيفة ، وأسلم الأمر بعد اجتهاد وبحث لصاحبه العليم سبحانه .

أختم بقول حجة الإسلام:

"ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها" [٤٦].

والله الموفق للصواب.

([٤٥]) الألوسي: ٤/٩٨.

([٤٦]) الإحياء: ٣/٣.

المبحث الثاني .

الصفات العامة للقلب .

نتناول في هذا المبحث أهم الصفات العامة للقلب ، وهي:

(١) كثرة التقلب. (٢) التوحد والتفرد.

(٣) أنه لا مطلع عليه إلا الله وحده. (٤) مكان تلقي القرآن.

(٥) أداة الميل. (٦) أداة الكسب.

(٧) الممحص الممتحن. (٨) موضع التحسين والتقبيح.

(٩) مبدأ الكلام ومنشؤه. (١٠) محل نور البصيرة.

(١) كثرة التقلب .

من صفات القلوب كثرة التقلب والتلون ، والتصرف في الخواطر والأحوال .

هذه حقيقة قررها القرآن العظيم ، كذا السنة المطهرة.

قال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .﴾ الأنفال٢٤ .

* ومعنى هذه الآية : أجيبوا دعاء رسول الله ﷺ إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، أي أنه تعالى المتصرف في كل شيء ، يصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها فيفسخ عزائمه ، ويغير مقاصده ، ويلهمه رشده ، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي [١].

(١) صفوة التفاسير: ١/٥٠٠.

*** تفصيل القول في قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ.﴾**

يقول **الراغب**[٢]: أصل الحول: تغير الشيء وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول حؤولاً، واستحال تهيأ لأن يحول. وباعتبار الانفصال قيل: حال بيني وبينك كذا.

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإشارة إلى ما قيل في وصف يقلب القلوب ، وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده. لحكمة تقتضي ذلك.

وقيل على ذلك: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ .. ﴾ سبأ٥٤ .

فالآية تدور حول معنى التسليم لله ﷻ في كل شيء ، فلا يستطيع المرء أن يؤمن إلا بإذن الله ، ولا يكفر إلا بإذن الله ، قاله السدي[٣].

ولقد كان من دعائه ﷺ: " **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** "[٤] .

وكان ﷺ كثيراً ما يحلف قائلاً " **لا ومقلب القلوب** " [٥].

قال **ابن حجر**: والمراد بتقليب القلوب: تقليب أعراضها وأحوالها لا تقليب ذات القلب ، وفي الحديث دليل على أن أعمال القلب من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض بخلق الله تعالى[٦].

ولما كانت الحيلولة التي في الآية تعنى التقلب الذي في الخبر وهما معاً يؤكدان كثرة التقلب والتحول في القلب ــ والكل من فعل الله ــ سأل النبي ﷺ ربه عدم المؤاخذة فيما لا يملك. فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول :-

---

(٢) الراغب : ١٣٧.
(٣) القرطبي : ٣٩٠/٧.
(٤) الترمذي كتاب : القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٣٩٠/٤.
(٥) رواه البخاري كتاب القدر. باب: يحول بين المرء وقلبه ٤٣٥/١١.
(٦) فتح الباري : ٤٤٤/١١.

" اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" (٧).

هذا وقد وردت آيات كثيرة تدل على تقلب القلوب في الدنيا والآخرة ، قال ﷻ : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا... ﴾ الأحزاب١٠ ، وهذا يوم الأحزاب .

قال قتادة: فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت ، أو أن هذا محمول على المبالغة ، وذلك على إضمار "كاد".

والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته ، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة .(٨).

وقال ﷻ: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. ﴾ النازعات٦-٨ .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي : مضطربة. يُقال: وجف القلب وجيفاً. اضطرب من شدة الفزع. والوجيف: اضطراب القلب وقلقه من شدة الخوف(٩).

وقال تعالى عن المؤمنين المخلصين: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ النور ٣٧ .

فتقلب القلوب في الآخرة سببه الخوف الشديد من الله ﷻ فلا يدري العبد أيؤخذ من ناحية اليمين أو من ناحية الشمال ، ولا يدرى من أي ناحية سيأخذ كتابه. وإلى أي مصير سيكون أإلى الجنة أو إلى النار والعياذ بالله؟ إذن فالتقلب بالخواطر وغيرها في الدنيا والآخرة من صفات القلب العامة.

---

(٧) أخرجه: الترمذي كتاب: النكاح، باب: ما جاء في التسوية بين الضرائر ٤٤٦/٣،
وأبو داود كتاب: النكاح، باب: القسم بين النساء ،
والنسائي كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه.

(٨) القرطبي: ١٤٥/١٤، والبحر: ٤٥٨/٨.

(٩) الألوسي ٢٧/٣٠.

(٢) التوحد والتفرد.

من أبرز الصفات العامة للقلب: أنه واحد لا يتعدد .

قال تعالى: ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ﴾ الأحزاب ٤ .

تنفي الآية الكريمة وجود قلبين في جوف واحد ، وتخصيص الرجل بالذكر في الآية ليس مقصودا لذاته بل المراد : ما جعل الله لأحد ، أو لذي قلب من الحيوان قلبين مطلقا. وجعل هنا بمعنى: خلق.

وخص الرجل بالذكر لحكم منها: كمال لوازم الحياة فيه ، فإذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الإناث ، وأما الصبيان فمآلهم إلى الرجولة.

وأما مجيء الجار والمجرور " **في جوفه** " فللتأكيد والتصوير كقوله ﷻ : ﴿ **ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ الحج٤٦ .

فإذا صور السامع لنفسه جوفا يشتمل على قلبين كان أسرع للإنكار والنفي(١٠).

*** سبب النزول :**

روى أنه كان في بني فهر رجل يقال له **أبو معمر جميل بن معمر الفهري** ، وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع ، فقالت قريش ما حفظ هذا إلا وله قلبان.

وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ، فلما كان يوم بدر ، وهزم المشركون وفيهم أبو معمر لقيه أبو سفيان ، وإحدى نعليه في رجله ، والأخرى معلقة بيده فقال له: ما حال الناس ؟

(١٠) الكشاف: ٣/٤٩٠، الشهاب: ٤٥٨/٧، زادة: ٥١/٤.

قال له: هزموا. قال: فما بال إحدى نعليك بيدك ؟ قال: مـــا شـــعرت إلا أنهما في رجلي ، فعرفوا يومئذ كذبه فيما كان يدعيه " [١١].

إذ لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

* ولقد نفي الحق ــ جل وعلا ــ وجود قلبين لأحد نفيا بليغاً حيث أحاطه بما لا يسع العاقل إلا تكذيب المثبت ، وذلك من خلال هذا النفي :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ...﴾ .

فالزوجية في المرأة غير الأمومة فيها ، فمقام المرأة يعنـــى الاســـتخدام والاستفراش وغيره ، أما مقام الأمومة فيعني الإحسان وخفض الجنـــاح ، ولا يصلح في الواقع ونفس الأمر الجمع بين الزوجية والأمومة من امرأة لرجل واحد .

وذلك تماماً بتمام في استحالة أن يجمع واحد بين البنوة الحقيقية الصلبية ، والبنوة من طريق الإدعاء والتبني .

فمن المستحيل الجمع بين أن يكون الإنسان أصيلاً غـــير أصيـــل ، ابـــن وليس بابن ؛ وبقدر التنافي والاستحالة في هذا المثال بقدر استحالة وجـود قلبين أو أكثر من قلب ــ بصفة عامة ــ في جوف واحد.

* وقد حكى الشعراء القدامى في أشعارهم هذه الاستحالة :

قال أحدهم:

ما أنصفتني الحادثات رمينني بمفارقين وليس لي قلبان .

وقال الآخر:

تملّك بعض حبك كل قلبي فإن ترد الزيادة هات قلباً . [١٢]

(١١) الواحدي : ص٢٦٤، والشهاب: ٤٥٩/٧.
(١٢) الشهاب: ٤٦٠/٧.

*** توحد القلب فضل من الله .**

من فضل الله علينا أن جعل لنا قلباً واحداً ؛ لأنه لو كان هناك أكثر من قلب في جوف واحد لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فيكون الثاني فضلة لا حاجة له.

وإما أن يفعل بأحدهما غير ما يفعل بالآخر فذلك يؤدي إلى التضاد في أفعال الشخص الواحد فيكون مثبتاً نافياً ، عالما ظاناً ، موقناً شاكاً ، كل ذلك في حال واحدة وهذا لا يصح ، ولما كان هذا لا يصح صح وثبت ما أراده الحكيم الخبير لنا.

* ولعل النفي في الآية المتقدمة الذي هو في أعلى درجات البلاغة ينفي بالضرورة وجود كفر وإيمان في قلب واحد ، هدى وضلال في ذات واحدة ومما يؤكد ذلك الطعن على المنافقين[١٣] الذين تقدم ذكرهم في أول السورة : ﴿ ... **وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ الأحزاب١ ؛ لأن القلب واحد وهو للواحد سبحانه وتعالى.

(٣) أنه لا مُطَّلع على القلب إلا الله وحده.

من صفات الخالق ــ جلا وعلا ــ : العلم . العلم الأزلي المحيط الشامل فهو سبحانه : ﴿ **لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ سبأ٣ .

هذه عقيدة المؤمن ،ولكن مما يسترعي الانتباه أن الله ــ تبارك وتعالى ــ خص أشياء بالعلم ، وذلك إما لخطرها وأهميتها ، وإما لدقتها ولطافتها وإما لاستحالة الإطلاع عليها بالذات المجردة أو حتى بتقنية العلم الحديث، ومن هذا الأخير القلب.

القلب الذي خُص بالعلم من الله وحده ، وبعد ذلك بمراحل تأتي الفراسة أو الفطنة وهما عطية وهبة ــ أيضاً ــ من الله .

(١٣) القرطبي : ١١٧/١٤، الألوسي : ١٤٥/٢١.

** آيات خصت القلب بعلم الله وحده :

قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ آل عمران ٢٩

وقال أيضاً: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ المائدة٧.

وقال أيضاً: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ البقرة ٢٠٤ .

وقوله ﷻ: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ....﴾ النساء ٦٣ .

وقال ﷻ: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ التوبة ٦٤ .

وقال ﷻ: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ الأحزاب ٥١ .

* إلقاء الضوء على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾

جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن المنافقين وأوصافهم ، فحكت أن من أوصاف الناس وأنواعهم من يحلو كلامه فيأخذ بمجامعك قوله ، ولكن قلبه انطوى على حقد ومرارة لو اطلعت عليه لساءك حاله.

فهو بحسب ادعائه يقول: الله يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾، وفي قراءة ابن محيص والحسن ﴿يَشْهَدَ الله على ما في قلبه﴾ (١٤)، بفتح الياء والهاء ، ورفع لفظ الجلالة.

(١٤) مختصر في شواذ القرآن: ص٣٠، وانظر إتحاف فضلاء البشر: ١/٤٣٤.

* **والمعنى على هذه القراءة** : "يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال ، ودليل هذه القراءة قوله تعالى: ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون....** ﴾ المنافقون١ ، وقراءة الجماعة أبلغ في الذم لأنه قوي على نفسه "أي المنافق" التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه.

وفي قراءة أبي وابن مسعود[١٥] ﴿**ويستشهد الله على ما في قلبه**﴾ ، وهى حجة لقراءة الجماعة[١٦].

* وفي عين صنف المنافقين قال تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ..... أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا** ﴾ النساء ٦٠-٦٣ .

فالآيات تظهر أن الله يعلم ما في قلوب المنافقين ، فهو سبحانه لا يخفى عليه خافية فلا يغني عنكم أيها المنافقون إبطانكم للكفر ، فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق وإلا أنزلت بكم ما نزل بالمجاهرين بالشرك انتقاما منكم [١٧].

* وفي نفس هذا الصنف من البشر " المنافقين " يفضح الله كيدهم الذي زعموا أنه لن يظهر لكونه في داخل قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون .** ﴾ التوبة ٦٤ .

---

(١٥) مختصر في شواذ القرآن: ص٢٠.
(١٦) الفخر: ٢١٥/٢، والقرطبي: ١٥/٢، وأبو السعود ٢٤٧/١.
(١٧) الكشاف: ٥٣٧/١ ، والفخر: ١٦١/١.

قال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلا من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبريل الرسول ﷺ بأسمائهم فقال عليه الصلاة والسلام:-

إن ناسا اجتمعوا على كيت وكيت فليقوموا وليعترفوا وليستغفروا ربهم حتى أشفع لهم ، فلم يقوموا .

فقال ﷺ بعد ذلك: **قم يا فلان ، ويا فلان ، حتى أتى عليهم ثم قالوا:** نعترف ونستغفر. فقال: **آلآن ؟ أنا كنت في أول الأمر أطيب نفسا بالشفاعة ، والله كان أسرع في الإجابة ، أخرجوا عني ، أخرجوا عني ،** فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية.

وقال **الأصم:** "**إنهم الاثنى عشر الذين وقفوا للنبي ﷺ على العقبة ليفتكوا به**"[١٨] وكما أبان الله عما في قلوب أناس زعموا أنهم في مأمن من بصر الله وسمعه ، وهم المنافقون ، أظهر الله تعالى علمه بالخبر الكائن في قلوب المؤمنين .

قال ﷺ : ﴿ **ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما** ﴾ الأحزاب ٥١ .

روى البخاري عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها ؟ فلما نزلت ﴿ **ترجي....الآية** ﴾، قلت: **ما أرى ربك إلا يسارع في هواك**[١٩].

والآية تثبت للنبي ﷺ حقا في طلاق أو إمساك من شاء من أزواجه وتمنحه حق إيواء من عزل منهن ، وفي كل ذلك لا إثم ولا عتب ، هذا

---

(١٨) الفخر: ١٢٣/١٦.

(١٩) رواه البخاري كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿ترجي من تشاء منهن..﴾ ٤٢٦/٨ ، ومسلم كتاب: النكاح ، باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها ٢٨٩/٥.

التخيير الذي خيره الله إياه أقرب إلى راحة قلوب أزواجه ، فلا يحزن ويرضين بصنيعه ؛ لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم.

﴿ **والله يعلم ما في قلوبكم**﴾ : خطاب له ﷺ ولأزواجه المطهرات على سبيل التغليب والمراد بما في القلوب عام يدخل فيه ما يكون في قلوبهن من الرضا بما دبر الله تعالى في حقهن من تفويض الأمر إليهﷺ ومقابل ذلك ، وما في قلبه الشريف من الميل إلى بعض دون بعض ، والكلام فيه حث على الاجتهاد في تحسين ما في القلوب.

ولعل اعتباره ﷺ في الخطاب لتطييب قلوبهن[٢٠].

* **وفي شأن قلوب المؤمنين** ، يقول الله ﷻ : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا .**﴾ الفتح١٨ .

وقد أفرد الله تعالى القلب في الآية بالعلم ﴿ **فعلم ما في قلوبهم** ﴾ أي من الإخلاص ، والصدق ، و الإيمان ، وحب الدين ، والحرص عليه فيما بايعوا عليه المصطفي ﷺ وهذه الصفات هي المعول عليها ، وبمعرفة أن الله يعلمها يحافظ صاحبها على مرأى الله فيه وينمى ما فيه من صفات حميدة ويثمرها.

* **نكتة في الفاء :**

الفاء في ﴿ **فعلم ما في قلوبهم** ﴾ للتعقيب ، وعلم الله قبل الرضا ؛ لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب في العلم ؟

(٢٠) الألوسي: ٢٢/٣٦.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿ **فعلم ما في قلوبهم** ﴾ متعلق بقوله ﷺ ﴿**إذ يبايعونك ..**﴾ كما يقول القائل: "فرحت أمس إذ كلمت زيدا فقام إلي، أو إذ دخلت عليه فأكرمني ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبا كذلك .

وهنا فعلم ما في قلوبهم من الصدق ، إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم[٢١].

مما تقدم نخلص إلى أنه رغم علم الله المحيط بكل شيء يظل القلب له خصوصية القرآنية التي تفرده بعلم الله وتمنع بذلك غيره من معرفة ما فيه ؛ لتزيد من الاهتمام بصلاحه أليس تتوقف عليه السلامة في الآخرة ؟!

(٤) مكان تلقي الوحي.

معلوم لدى كل مسلم أن كتاب الله وصل إليه عن طريق واحدة : هي التلقي قال تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ النمل٦ .

فقد أعلم ربنا كلامه جبريل ، وعلم جبريل محمدا ﷺ ، وعلم النبي ﷺ صحابته ، ثم انتقل علم الصحابة بطريقة التلاوة إلى التابعين.

ففي حق أمين وحي السماء قال الله تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ البقرة ٩٧ .

وقال أيضا : ﴿ **نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين .**﴾ الشعراء ١٩٣-١٩٥ .

* والملاحظ في الآيتين السابقتين اجتماعهما على جملة ﴿ **على قلبك** ﴾ دون غيرها من عبارات كـ " عليك ، أو إليك ، أو إلى قلبك " ، ولعل

(٢١) الفخر: ٢٨/٩٥.